

التبعم الرابع

نقد دعاوي المعارضات الفكرية المعاصرة
لأحاديث الإسراء والمعراج

المَطْلَبُ الْأَوَّلُ

سَوَقُ أَحَادِيثِ الْإِسْرَاءِ وَالْمِعْرَاجِ

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن مالك بن صعصعة رضي الله عنه، أن نبي الله صلى الله عليه وسلم حدثهم عن ليلة أسري به: «بينما أنا في الحطيم»^(١) -وربما قال: في الحجر^(٢)- مضطجماً، إذ أتاني آتٍ فَقَدْ -قال^(٣): وسمعتَه يقول: فسق ما بين هذه إلى هذه -فقلتُ للجارود^(٤) وهو إلى جنبي: ما يعني به؟ قال: من تُغَرِّو^(٥) نحره إلى شِعْرَتِهِ^(٦)، وسمعتَه يقول: من قَصَّو^(٧) إلى شِعْرَتِهِ -فاستخرج قلبي، ثم أتيت بطست من ذهب مملوءة إيماناً، فغسل قلبي، ثم حُشِي، ثم أعيد، ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض -فقال له الجارود: هو البراق يا أبا حمزة؟ قال أنس: نعم - يَضَعُ حَظْوَهُ عِنْدَ أَقْصَى طَرْفِهِ، فَحُولَتْ عَلَيْهِ.

(١) الحطيم: الحجر، انظر: «فتح الباري» لابن حجر (٢٠٤/٧).

(٢) قال ابن حجر: الشك من قتادة، «الفتح» (٢٥٥/٧).

(٣) القائل قتادة، والمقول عنه أنس رضي الله عنه، انظر «الفتح» (٢٥٦/٧).

(٤) الجارود قال عنه ابن حجر: لم أر من نسب من الرواة ولعله ابن أبي سيرة البصري صاحب أنس، فقد أخرج له أبو داود من روايته عن أنس حديثاً غير هذا المصدر السابق.

(٥) من تُغَرِّتُه: الموضع المنخفض الذي بين الترقوتين، المصدر السابق.

(٦) شِعْرَتُهُ: أي شعر العانة، المصدر السابق.

(٧) من قَصَّو: أي رأس صدره، المصدر السابق.

فانطلق بي جبريلُ حتَّى أتى السَّمَاءَ الدُّنْيَا فَاسْتَفْتَحَ، فقيل: مَنْ هَذَا؟ قال جبريل، قيل: وَمَنْ مَعَكَ؟ قال: مُحَمَّدٌ، قيل: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ^(١)؟ قال: نعم، قيل: مَرْحَبًا بِهِ، فَنِعَمَ الْمَجِيءُ جَاءَ، فَفَتَحَ، فَلَمَّا خَلَصْتُ، فإِذَا فِيهَا آدَمُ، فقال: هَذَا لِبُوكِ آدَمُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَرَدَّ السَّلَامَ، ثُمَّ قال: مَرْحَبًا بِالْإِبْنِ الصَّالِحِ، وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ.

ثُمَّ صَعِدَ، حتَّى أتى السَّمَاءَ الثَّانِيَةَ، فَاسْتَفْتَحَ، قيل مَنْ هَذَا؟ قال: جبريلُ، قيل: وَمَنْ مَعَكَ؟ قال: مُحَمَّدٌ، قيل: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قال: نعم، قيل: مَرْحَبًا بِهِ، فَنِعَمَ الْمَجِيءُ جَاءَ، فَفَتَحَ، فَلَمَّا خَلَصْتُ، إِذَا بِيَحْيَى وَعِيسَى، وَهُمَا ابْنَا الْخَالَةِ، قال: هَذَا بِحْيَى وَعِيسَى، فَسَلِّمْ عَلَيْهِمَا، فَسَلَّمْتُ، فَرَدَّا، ثُمَّ قالَا: مَرْحَبًا بِالْأَخِ الصَّالِحِ، وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ.

ثُمَّ صَعِدَ بي إِلَى السَّمَاءِ الثَّلَاثَةِ فَاسْتَفْتَحَ، قيل: مَنْ هَذَا؟ قال: جبريلُ، قيل: وَمَنْ مَعَكَ؟ قال: مُحَمَّدٌ، قيل: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قال: نعم، قيل: مَرْحَبًا بِهِ، فَنِعَمَ الْمَجِيءُ جَاءَ، فَفَتَحَ، فَلَمَّا خَلَصْتُ، إِذَا يَوْسُفُ، قال: هَذَا يَوْسُفُ، فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَرَدَّ، ثُمَّ قال: مَرْحَبًا بِالْأَخِ الصَّالِحِ، وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ. ثُمَّ صَعِدَ بي، حتَّى أتى السَّمَاءَ الرَّابِعَةَ، فَاسْتَفْتَحَ، قيل: مَنْ هَذَا؟ قال: جبريلُ، قيل: وَمَنْ مَعَكَ؟ قال: مُحَمَّدٌ، قيل: أَوْ قَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قال: نعم، قيل: مَرْحَبًا بِهِ، فَنِعَمَ الْمَجِيءُ جَاءَ، فَفَتَحَ، فَلَمَّا خَلَصْتُ إِلَى إِدْرِيسَ، قال: هَذَا إِدْرِيسُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَرَدَّ، ثُمَّ قال: مَرْحَبًا بِالْأَخِ الصَّالِحِ، وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ.

ثُمَّ صَعِدَ بي، حتَّى أتى السَّمَاءَ الْخَامِسَةَ، فَاسْتَفْتَحَ، قيل: مَنْ هَذَا؟ قال: جبريلُ، قيل: وَمَنْ مَعَكَ؟ قال: مُحَمَّدٌ، قيل: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قال: نعم، قيل: مَرْحَبًا بِهِ، فَنِعَمَ الْمَجِيءُ جَاءَ، فَلَمَّا خَلَصْتُ، فإِذَا هَارُونُ، قال: هَذَا هَارُونُ فَسَلِّمْ عَلَيَّ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَرَدَّ، ثُمَّ قال: مَرْحَبًا بِالْأَخِ الصَّالِحِ، وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ.

(١) أي للعروج، وليس المراد أصل البيت؛ لأنَّ ذلك كان مُشْتَهَرًا فِي الْمَلَكُوتِ الْأَعْلَى، الْمَصْدَرُ السَّابِقُ (٢٦٢/٧).

ثُمَّ صَوَدَ بِي، حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ، فَاسْتَفْتَحَ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جَبْرِيلُ، قِيلَ: مَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: مَرْحَبًا بِهِ، فَنِعِمَّ الْمَجِيءُ جَاءَ، فَلَمَّا خَلَصْتُ، فَإِذَا مُوسَى، قَالَ: هَذَا مُوسَى فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَرَدَّ، ثُمَّ قَالَ: مَرْحَبًا بِالْأَخِ الصَّالِحِ، وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ، فَلَمَّا تَجَاوَزْتُ بَكِّي، قِيلَ لَهُ: مَا يُبْكِيكَ؟ قَالَ: أَبْكِي لِأَنَّ غُلَامًا بَعَثَ بَعْدِي يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِهِ أَكْثَرَ مِنْ يَدْخُلُهَا مِنْ أُمَّتِي.

ثُمَّ صَعِدَ بِي إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ فَاسْتَفْتَحَ جَبْرِيلُ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جَبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ بُوِّثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: مَرْحَبًا بِهِ، فَنِعِمَّ الْمَجِيءُ جَاءَ، فَلَمَّا خَلَصْتُ فَإِذَا إِبْرَاهِيمُ، قَالَ: هَذَا أَبُوكَ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، قَالَ: فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَرَدَّ السَّلَامَ، قَالَ: مَرْحَبًا بِالْابْنِ الصَّالِحِ، وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ، ثُمَّ رُفِعَتْ لِي سِدْرَةُ الْمُتَنَهَى. فَإِذَا نَيْفُهَا ^(١) مِثْلُ قِلَالٍ مَجَرٍّ ^(٢)، وَإِذَا وَرَقُهَا مِثْلُ آذَانِ الْفِيلَةِ، قَالَ: هَذِهِ سِدْرَةُ الْمُتَنَهَى، وَإِذَا أَرْبَعَةُ أَنْهَارٍ نَهْرَانِ بَاطَنَانِ، وَنَهْرَانِ ظَاهِرَانِ، فَقُلْتُ مَا هَذَانِ يَا جَبْرِيلُ؟ قَالَ: أَمَّا الْبَاطَنَانِ فَنَهْرَانِ فِي الْجَنَّةِ، وَأَمَّا الظَّاهِرَانِ: فَالنَّيْلُ وَالْفُرَاتُ، ثُمَّ رُفِعَ لِي الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ، يَدْخُلُهُ كُلُّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، ثُمَّ أُتِيتُ بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ، وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ، وَإِنَاءٍ مِنْ عَسَلٍ؛ فَأَخَذْتُ اللَّبَنَ، فَقَالَ: هِيَ الْفِطْرَةُ الَّتِي أَنْتَ عَلَيْهَا وَأَمْتُكَ.

ثُمَّ فُرِضَتْ عَلَيَّ الصَّلَاةُ خَمْسِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ، فَرَجَعْتُ فَمَرَرْتُ عَلَى مُوسَى، فَقَالَ: بِمِ أَمَرْتُ؟ قَالَ: أَمَرْتُ بِخَمْسِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ، قَالَ: أَمْتُكَ لَا تَسْتَطِيعُ خَمْسِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ، وَإِنِّي -وَاللَّهِ- قَدْ جَرَّبْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ، وَعَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ الْمَعَالِجَةِ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأَمْرِكَ، فَرَجَعْتُ، فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ مِثْلَهُ، فَرَجَعْتُ فَوَضَعَ عَنِّي

(١) النَّيْفُ: ثَمَرُ السَّدَرِ، وَاحِدَتُهُ: نَيْفَةٌ وَنَيْفَةٌ، انظر «النهاية» لابن الأثير (١٠/٥).

(٢) قِلَالٌ مَجَرٌّ: الْقِلَالُ جَمْعُ قُلَّةٍ، وَهِيَ الْحَجَرَةُ الْعَظِيمَةُ، وَهَجَرٌ: قَرْيَةٌ قَرِيبَةٌ مِنَ الْمَدِينَةِ، وَلَيْسَتْ هَجَرَ الْبَحْرَيْنِ، الْمَصْدَرُ السَّابِقُ (١٠٤/٤).

عَشْرًا، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ مِثْلُهُ، فَرَجَعْتُ فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ مِثْلُهُ، فَرَجَعْتُ فَأَمَرْتُ بِعَشْرِ صَلَوَاتٍ كُلِّ يَوْمٍ، فَرَجَعْتُ فَقَالَ مِثْلُهُ، فَرَجَعْتُ فَأَمَرْتُ بِخَمْسِ صَلَوَاتٍ كُلِّ يَوْمٍ، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ: بِمِ أَمَرْتُ؟ قُلْتُ: أَمَرْتُ بِخَمْسِ صَلَوَاتٍ كُلِّ يَوْمٍ، قَالَ: إِنَّ أُنْتُكَ لَا تَسْتَطِيعُ خَمْسَ صَلَوَاتٍ كُلِّ يَوْمٍ، وَإِنِّي قَدْ جَرَّبْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ وَعَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ الْمَعَالَجَةِ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُنْتُكَ، قَالَ: سَأَلْتُ رَبِّي حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ، وَلَكِنْ أَرْضِي وَأَسْلَمْ، قَالَ: فَلَمَّا جَاوَزْتُ نَادَى مُنَادٍ: أَنْصَبِي فَرِيضَتِي، وَخَفَّفْتُ عَنْ عِبَادِي» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ^(١).

وعن أنس قال: كَانَ أَبُو ذَرٍّ رضي الله عنه يُحَدِّثُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «فَرَجَّ سَقَفُ بَيْتِي وَأَنَا بِمَكَّةَ، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ، فَفَرَجَ صَدْرِي، ثُمَّ عَسَلَهُ بِمَاءٍ وَزَمْزَمَ، ثُمَّ جَاءَ بِطَلَسْتِ مِنْ ذَهَبٍ مُمْتَلِئٍ حِكْمَةً وَإِيمَانًا، فَأَفْرَعَهَا فِي صَدْرِي، ثُمَّ أَطْبَقَهُ، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي فَعَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ، فَلَمَّا جَاءَ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، قَالَ جِبْرِيلُ لَخَازِنِ السَّمَاءِ: اقْفَعْ، قَالَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا جِبْرِيلُ، قَالَ: مَعَكَ أَحَدٌ، قَالَ: مَعِيَ مُحَمَّدٌ، قَالَ: أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَأَقْفَعْ، فَلَمَّا عَلَوْنَا إِلَى السَّمَاءِ إِذَا رَجُلٌ عَنْ يَمِينِهِ أَسْوَدَةٌ^(٢)، وَعَنْ يَسَارِهِ أَسْوَدَةٌ، فَلِذَا نَظَرَ قَبْلَ يَمِينِهِ ضَحَكَ، وَإِذَا نَظَرَ قَبْلَ شِمَالِهِ بَكَى، فَقَالَ: مَرَحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ، وَالْإِنِّ الصَّالِحِ، قُلْتُ: مَنْ هَذَا يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَذَا آدَمُ، وَهَذِهِ الْأَسْوَدَةُ عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ نَسَمُ بَنِيهِ^(٣)، فَأَهْلُ الْيَمِينِ مِنْهُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ، وَالْأَسْوَدَةُ الَّتِي عَنْ شِمَالِهِ أَهْلُ النَّارِ، فَلِذَا نَظَرَ قَبْلَ يَمِينِهِ ضَحَكَ، وَإِذَا نَظَرَ قَبْلَ شِمَالِهِ بَكَى...» الْحَدِيثُ.

(١) أخرجه البخاري في (ك: مناقب الأنصار، باب: المعراج، رقم: ٣٨٨٧)، ومسلم في (ك: الإيمان، باب: الإسراء برسول الله ﷺ، رقم: ١٦٤).

(٢) أسودة: جمع سواد، كسنام وأسنمة، وفسر الأسودة في الحديث بأنها نَسَمُ بَنِيهِ، وتجمع الأسودة على أساود، والسواد: الشخص، وقيل السواد: الجماعات، انظر «شرح صحيح مسلم» للنووي (٢/٢١٨).

(٣) نَسَمُ بَنِيهِ: الواحدة نسمة، وهي نفس الإنسان، والمراد: أرواح بني آدم، المصدر السابق.

قال: وأخبرني ابن حزم^(١)، أَنَّ ابن عباس رضي الله عنه وأبا حَبَّةَ الأنصاري رضي الله عنه، كانا يقولان: قال النَّبِيُّ ﷺ: «ثُمَّ عُرِجَ بِي حَتَّى ظَهَرْتُ لِمُسْتَوَى أَسْمَعَ صَرِيفَ الْأَقْلَامِ»^(٢).

وعن ابن حزم وأنس بن مالك رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «... ثُمَّ انْطَلَقَ، حَتَّى أَتَى بِي السَّدْرَةُ الْمُنتَهَى، فَفَشِيهَا أَلْوَانٌ لَا أَدْرِي مَا هِيَ! ثُمَّ أَذْخَلْتُ الْجَنَّةَ، فَإِذَا فِيهَا جَنَابُذُ اللَّوْلُو»^(٣)، وَإِذَا تُرَابُهَا الْمِسْكُ» مَتَّقَى عَلَيْهِ^(٤).

وعن ثابت البناني، عن أنس بن مالك رضي الله عنه؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: «أَتَيْتُ بِالْبَرَاقِ، وَهُوَ دَابَّةٌ أَبْيَضُ طَوِيلٌ، فَوْقَ الْحِمَارِ، وَدُونَ الْبَغْلِ، يَضَعُ حَافِرَهُ عِنْدَ مُنْتَهَى طَرَفِهِ، قَالَ: فَرَكِبْتُهُ، حَتَّى أَتَيْتُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ، قَالَ: قَرَّبْتُهُ بِالْحَلَقَةِ، الَّتِي يَرِيطُ بِهَا الْأَنْبِيَاءُ، قَالَ: ثُمَّ دَخَلْتُ، فَصَلَّيْتُ رَكَعَتَيْنِ، ثُمَّ خَرَجْتُ، فَجَاءَنِي جِبْرِيلُ ﷺ بِإِنَاءٍ مِنْ حَمَرٍ، وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ، فَاخْتَرْتُ اللَّبَنَ، فَقَالَ جِبْرِيلُ ﷺ: اخْتَرْتَ الْفِطْرَةَ»^(٥)، ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ» أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ^(٦).

(١) قال ابن رجب: «الظاهر أَنَّهُ أَبُو بَكْرٍ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنُ عَمْرِو بْنِ حَزْمٍ»، «فتح الباري» له (٣١٨/٢).

(٢) صريف الأقلام: صوت ما تكتبه الملائكة بأقلامها من أفضية الله تعالى وحيه، أو ما ينسخونه من اللوح المحفوظ، أو ما شاء الله من ذلك، انظر «فتح الباري» لابن رجب (٣١٨/٢).

(٣) جنابذ اللؤلؤ: جمع جُنَيْذَةٍ، وهي القَمَّةُ، انظر «النهاية» (٣٣٣/١).

(٤) أخرجه البخاري في (ك: أخبار الأنبياء، باب: ذكر إدريس ... رقم: ٣٣٤٢)، ومسلم في (ك: الإيمان، باب: الإسراء برسول الله ﷺ إلى السموات وفرض الصلوات، رقم: ١٦٣).

(٥) فيه أقوال، أوجهها: الإسلام، أو الاستقامة، أو الحنيفية، وهذا هو اختيار القاضي عياض في «إكمال المعلم» (٥٠١/١)، واقتصر عليه النووي في «شرح لمسلم» (٢١٢/٢).

(٦) أخرجه مسلم في (ك: الإيمان، باب: الإسراء برسول الله ﷺ إلى السموات، رقم: ١٦٢).

المَطْلَب الثَّانِي

سَوَقُ الْمَعَارِضَاتِ الْفِكْرِيَّةِ الْمُعَاَصِرَةِ

لأَحَادِيثِ الْإِسْرَاءِ وَالْمَعْرَاجِ

قد أُورِدَتْ عَلَى حَدِيثِ الْإِسْرَاءِ عِدَّةُ اعْتِرَاضَاتٍ؛ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ مَشَارِبِ الْمُورِدِينَ، وَمُحْصَلُ هَذِهِ الشُّبُهَاتِ يُوَلِّدُ إِلَى ثَلَاثٍ:

المعارضة الأولى: أَنَّهُ مِنَ الْمَقَرَّرِ فَلَكِيًّا: أَنَّ الْهَوَاءَ يُفَقَّدُ بَعْدَ أُمِّيَالٍ فَوْقِ الْأَرْضِ؛ وَعَلَى هَذَا فَلَا يَتَأَثَّرُ الْعَيْشُ لِأَحَدٍ بَعْدَ انْقِطَاعِ الْهَوَاءِ، وَهَذَا الِاعْتِرَاضُ نَقْلُهُ عَبْدُ اللَّهِ الْقَاصِمِيُّ عَنْ بَعْضِ الْمُعَاَصِرِينَ، قَالُوا: «... فَلَوْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعْرِجُ بِهِ إِلَى مَا فَوْقَ الْهَوَاءِ، لَمَا أَمَكَّنَ أَنْ يَبْقَى حَيًّا»^(١).

المعارضة الثانية: أَنَّ إِثْبَاتَ الْحَدِيثِ يُلْزِمُ مِنْهُ إِضَافَةَ الْجَهْلِ لِلَّهِ تَعَالَى؛ ذَلِكَ أَنَّهُ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: أَنَّ اللَّهَ بَعْدَ أَنْ قَرَضَ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ خَمْسِينَ صَلَاةً، لَمْ يَفْقَهُ اسْتِحَالَةَ أَدَائِهَا عَلَى الْبَشَرِ إِلَّا مُوسَى ﷺ، وَكَأَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ بِقُدْرَةِ عِبَادِهِ، وَمَدَى تَحْمِلِهِمْ!

وَفِي تَقْرِيرِ هَذِهِ الشُّبُهَةِ، يَقُولُ (مَحْمُودُ أَبُو رِيَّةَ):

«فِي حَدِيثِ الْمَعْرَاجِ أَنَّهُ: لَمَّا قَرَضَ اللَّهُ خَمْسِينَ صَلَاةً عَلَى الْعِبَادِ فِي النَّهَارِ وَفِي اللَّيْلِ، لَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ مِنَ الرُّسُلِ جَمِيعًا غَيْرَ مُوسَى أَنْ يَفْقَهُ اسْتِحَالَةَ أَدَائِهَا

(١) «مشكلات الأحاديث النبوية» للقاسمي (ص/١٢٢).

على البشر!.. وكان الله ﷻ لَمَّا فَرَضَ الصَّلَاةَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، كان لا يعلم مَبْلَغُ قُوَّةِ احتمال عبادته على أداؤها -تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا- وكذلك لا يعلم مُحَمَّدٌ الَّذِي اصطفاه للرسالة العامة إلى النَّاسِ كَافَّةً. لا يعلم إِنْ كان مَنْ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ يستطيعون احتمال هذه العبادة أو لا يستطيعون، حَتَّى بَصَّرَهُ مُوسَى! وهكذا ترى الإسرائيليات تنفذ إلى ديننا، وتسري في معتقداتنا، فتعمل عملها، ولا تجد أحدًا إِلَّا قَلِيلًا يَزَيِّفُهَا أو يَرُدُّهَا^(١).

المعارضة الثالثة: أَنَّ في خبر عُرُوجِهِ ﷺ ما هو مخالفٌ لمقتضى الضرورة العقلية؛ إذ كيف يصلِّي بالأنبياء في بيت المقدس، ويكونون في الوقت نفسه في السماء، ويكون أيضًا موسى ﷺ يصلِّي في قبره، كما ورد بذلك الحديث في «صحيح مسلم»؟!^(٢).

(١) «أضواء على السنة المحمدية» (ص/١٣٥)، وقد تكرر إيراد هذه الشبهة على حديث المعراج كثيرًا في كتب الطاعنين المعاصرين، منها: «الحديث والقرآن» لابن قرناس (ص/٤٢٧-٤٣٠)، و«دين السلطان» (ص/٣٧٤)، و«جناية البخاري» لأوزون (ص/١٤٣)، «البخاري وصحيحه» للهرساوي الإمامي (ص/٤٠).

(٢) انظر «مشكلات الأحاديث النبوية» للفصيمي (ص/١٢١-١٢١)، والحديث الذي في مسلم أخرجه في (ك: الفضائل، باب: فضائل موسى ﷺ، رقم: ٢٣٧٥) أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «مررت على موسى ليلة أسري بي عند الكتيب الأحمر، وهو قائم يصلِّي في قبره».

المَطْلَبُ الثَّالِثُ

دَفْعُ دَعَاوِي الْمَعَارِضَاتِ الْفِكْرِيَّةِ الْمُعَاَصِرَةِ عَنْ أَحَادِيثِ الْإِسْرَاءِ وَالْمَعْرَاجِ

مُحْصَلُ مَا مَرَّ مِنَ الشُّبُهَاتِ آيِلٌ إِلَى إِحَالَةِ هَؤُلَاءِ الْمُعْتَرِضِينَ لِمَا تَضَمَّنَهُ الْحَدِيثُ، وَمَنَاطُ إِحَالَتِهِمْ: خُرُوجُ حَادِثَةِ «الْإِسْرَاءِ وَالْمَعْرَاجِ» عَنْ مَقْتَضَى الْعَادَةِ، وَعَدَمُ مَبَاشَرَةِ الْحَسِّ لَهَا، فَالْتِمَسَ عَلَيْهِمُ الْأَمْرُ، فَظَنُّوا أَنَّ ذَلِكَ يَسْتَوْجِبُ إِحَالََةَ الْعَقْلِ لِهَذَا الْحَدِيثِ، فَلَا يُمْكِنُ عَلَى مَقْتَضَى ذَلِكَ التَّسْلِيمُ بِهَذِهِ الْآيَةِ الَّتِي أَكْرَمَ اللَّهُ ﷺ نَبِيَّهَ ﷺ بِهَا.

فَزَلَّتْ بِهِمْ أَفْدَائُهُمْ إِلَى رَدِّ الْحَدِيثِ، وَتَطَلَّبُ الْعِلَلِ الْوَاهِيَةِ الَّتِي لَا تَقْوَى عَلَى إِبْطَالِ حَقِيقَةِ مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْآيَةُ الْعَظِيمَةُ.

وَمَنْ أَلْطَفَ النَّظَرَ فِيمَا انْطَوَتْ عَلَيْهِ بَعْضُ هَذِهِ الطُّعُونِ، تَحَصَّلَ لَدَيْهِ أَنَّهَا لَا تَصْدُرُ إِلَّا مِنْ مَنْ يَشْكُ فِي قُدْرَةِ الْخَالِقِ ﷻ عَلَى خَرْقِ سُنَنِ الْكَوْنِ، لَا مَنْ يُمْنُ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَيَكْمُلُ قُدْرَتُهُ^(١).

وَقَبْلَ إِبْرَادِ الْمَعَارِضَاتِ الْعَقْلِيَّةِ الْمُعَاَصِرَةِ، وَإِسْلَافِ جَوَابَاتِ أَهْلِ الْعِلْمِ عَنْ أَحَادِ هَذِهِ الْأَعْتَرِاضَاتِ عَلَى الْحَدِيثِ؛ فَإِنَّهُ يَتَعَيَّنُ الْإِشَارَةُ إِلَى مَلْحَظٍ مُهِمٍّ: وَهُوَ انْعِقَادُ إِجْمَاعِ الْأُمَّةِ عَلَى وَقُوعِ الْإِسْرَاءِ وَالْمَعْرَاجِ، وَأَنَّ هَذِهِ الْحَادِثَةَ مِنَ الْبَرَاهِينِ وَالْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ؛ لِذَلِكَ تَرَى مَدَى احْتِفَالِ أَهْلِ

(١) انظر «دفع دعوى المعارض العقلية» (ص/ ٣٧٧).

السَّيَر والحديث واحتفائهم بهذه الحادثة، وعقدتهم المصنّفات في بيانها، والتماس
الغير منها، ونظمها في دلائل النبوة^(١)، وما ذاك إلا لكونها - كما أسلفت - من
الدلائل العظيمة التي أكرم الله بها نبيه ﷺ.

وممن نقل الاتفاق على ذلك: القاضي عياض السبتي، حيث قال: «لا
خلاف بين المسلمين في صحّة الإسراء به ﷺ...»^(٢)، وأبو الخطاب ابن دحية^(٣)،
حيث قال: «حديث الإسراء أجمع عليه المسلمون، واعترض فيه الزنادقة
المُلحدون...»^(٤).

ومرتكز هذا الإجماع: القرآن والسنة، فقد نصّ الله سبحانه على الإسراء
في موضعين من كتابه العزيز:

أولهما: قوله ﷺ: «سَمِعْنَا الَّذِي أَمَرْنَا بِمَبْلُوكِهِ لَيْلًا مَرَّتِ السَّجْدُ الْمَحْكُومُ إِلَى
السَّجْدِ الْأَنْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ مَلَكَيْنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ»^(٥)،
فقد أخبر المولى أنه أسرى بعبيده، والتبّد مجموع الرّوح والجسد، ولم
يُخبر أنه أسرى بروحه فقط، كما غلط في تأويله قلّة من أهل العلم^(٦)، ولذا نراه

(١) من تلك الأسفار التي حُصّنت هذه الحادثة بمزيد عناية: «الآيات العظيمة الباهرة في معراج سيد أهل
الدنيا والآخرة» لشمس الدين محمد بن يوسف الشامي، وله عدّة مصنفات في هذه الحادثة كلّها
مخطوطة، و«السراج الوهاج في ازدواج المعراج» لابن ناصر الدين الدمشقي، و«رسالة في المعراج»
لأبي الحسن علي بن محمد اللخمي، و«الإسراء» لعبد الغني المقدسي، و«نور المسمّى في تفسير آية
الإسراء» لأبي شامة المقدسي، و«الآية الكبرى في شرح قصة الإسراء» لجلال الدين السيوطي، و«الإسراء
والمعراج» للقاسمي، و«الإسراء والمعراج» لمحمد ناصر الدين الألباني، وغيرها كثير بين مطبوع
ومخطوط، تجدّها مسرودة في معجم الموضوعات المطروقة في التأليف الإسلامي. لعبد الله الحبشي
(٩٣-٩٦).

(٢) «الشفا» (١٧٧/١).

(٣) أبو الخطاب صهر بن الحسين بن دحية الكلبي (ت ٩٣٣ هـ): المعروف بـ «ذي النُسيب» الأنطلسي السبتي،
أحد الحفاظ، من أعيان أهل العلم وفقه مالّك، متقنا لعلم الحديث النبوي وما يتعلق به، عارفاً بالحنو
واللغة وأيام العرب وأشعارها، من مصنفاته «المطرب من أشعار أهل المغرب»، و«علم النصر المبين»،
في المفاضلة بين أهل صفين، انظر «سير أعلام النبلاء» (٣٨٩/٢٢).

(٤) «الانتهاج في أحاديث المعراج» لابن دحية (ص/٥٩).

(٥) انظر «زاد المعاد» لابن القيم (٣/٣٦)، حيث ردّ على هذا القول، مع تنبيهه على أنهم لم يريدوا به أن
الإسراء كان مناماً.

تعالى يُقَدِّم التَّسْبِيحَ قَبْلَ سَوْقِ خَبَرِ الْإِسْرَاءِ، لِبَيَانِ أَنَّ هَذَا الْخَبَرَ مِنَ الْأُمُورِ الْعِظَامِ، فَلَوْ كَانَ مَنَامًا كَمَا ظَنَّهُ ابْنُ إِسْحَاقَ^(١)، لَمْ يَكُنْ مُسْتَعْظَمًا، وَلَمْ يَكُنْ لِلتَّسْبِيحِ مَعْنَى عِنْدَهُ^(٢)!

فَقَضَرُ الْإِسْرَاءِ عَلَى الرُّوحِ تَعَدُّ لِمَا قَالَهُ اللَّهُ إِلَى غَيْرِهِ، وَالْقَوْلُ بِهِ مُخَالَفَةٌ لظَاهِرِ الْقُرْآنِ، وَمَا اسْتَفَاضَتْ بِهِ الْأَخْبَارُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَمَا جَاءَتْ بِهِ الْأَثَارُ عَنِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ.

وفانيهما: ما أشار الله تعالى فيه إلى رؤية نبيه ﷺ لجبريل على خلقته الأصلية حين عُرِجَ بِهِ فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٧﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ﴿١٨﴾ عِنْدَ جَنَّةِ الْمَأْوَىٰ ﴿١٩﴾ إِذْ يَنْتَهِى السَّلْوَدُ مَا يَنْتَهِى ﴿٢٠﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿٢١﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ [التَّجْوِيدُ: ١٣-١٨].

ولقد تواترت الأخبار بحادثة الإسراء والمعراج؛ فَمِمَّنْ نَقَلَ هَذَا الْقَوَاتِرُ: أَبُو الْخَطَّابِ ابْنُ دَحِيَّةَ^(٣)، وَالزُّرْقَانِيُّ^(٤)، وَابْنُ تَيْمِيَّةَ، حَيْثُ قَالَ: «أَحَادِيثُ الْمِعْرَاجِ، وَصُوعُودُهُ إِلَى مَا فَوْقَ السَّمَوَاتِ، وَفَرَضَ الرَّبُّ عَلَيْهِ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ حِينَئِذٍ، وَرُؤْيَاهُ لِمَا رَأَى مِنَ الْآيَاتِ، وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَالْمَلَائِكَةِ وَالْأَنْبِيَاءِ فِي السَّمَوَاتِ، وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ، وَسِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، وَغَيْرِ ذَلِكَ: مَعْرُوفٌ مُتَوَاتِرٌ فِي الْأَحَادِيثِ»^(٥).

مِمَّا دَعَا ابْنَ جَعْفَرِ الْكَتَّانِي (ت ١٣٤٥هـ) لِإِيْدَاعِهَا كِتَابَهُ «نُظْمُ الْمُتَنَائِرِ»^(٦).

(١) انظر «سيرة ابن هشام» (٣٩٩/١)، وقد أجاد ابن جرير في الرد عليه في «جامع البيان» (٤٤٦/١٤).

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤٣/٥).

(٣) «الابتهاج» لابن دحية (ص/٥٩).

(٤) شرح الزرقاني على المواهب اللدنية (١٥/٨).

والزُّرْقَانِيُّ (ت ١١٢٢هـ): هو مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْبَاقِي الزُّرْقَانِيُّ، أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْمَالِكِيُّ، إِمَامٌ مُتَفَنٌّ، مِنْ مُؤَلَّفَاتِهِ «شرح موطأ مالك»، انظر «شجرة النور الزكية» (٤٦٠/١).

(٥) «الجواب الصحيح» لابن تيمية (١٦٨/٦).

(٦) «نظم المتناثر» (ص/٢٠٧).

وبعد تحقيق القول في ثبوت إجماع السلف على وقوع الإسراء والمعراج بجسده ﷺ، لم يبقَ إلَّا قطع سُوقِ الشُّبُهَاتِ بِسَيْفِ البراهين، فدونك بيان ذلك في الأجوبة التالية.

أما جواب المعارضة الأولى: في دعوى أَنَّ الهواءَ يُفْقَدُ بعد أميالٍ فوق الأرض؛ وعلى هذا فلا يتأتَّى العيشُ لأحدٍ بعد انقطاع الهواء:

أَنَّ حادثة الإسراء والمعراج وإن جُرئ فيها مِنَّا هو خارج عن مقدور الثقلين؛ لَيْتَمَ بها نَصَبُ الدَّلَائِلِ على نُبُوَّتِهِ ﷺ: إلَّا أَنَّهَا ليست مُخَالَفَةً لبدائِهِ العقلِيَّةِ، والعقل لا يَسْتَعصي عليه تصوُّر ذلك، فَمَنْ خَلَقَ الإنسان مُفْتَقِرًا إلى الهواء؛ قَادِرٌ على أَنْ يَجْعَلَهُ مُسْتغْنِيًا عنه، وَإِنَّمَا لَعَدَمُ مُبَاشَرَةِ الْجِسِّ لِمِثْلِ ذلك، تراه يُنْكَرُ كُلُّ مَا لا يَقَعُ في دائرة إدراكِهِ، وهذا هو القصور بعينه.

فالتَّكْذِيبُ بهذه الأحاديث لكونها أثبتت وقوع أمرٍ خارجٍ لِمَا اعتاده البَشَرُ من مُقَوِّمَاتِ مَعِيشَتِهِمْ: يُؤَوِّلُ إلى الظَّنِّ في كمالِ قدرةِ الله تعالى والإيمان به؛ فَإِنَّ مِثْلَ هذا الاعتراضِ لا يكاد يصدرُ إلَّا مِمَّنْ لا يؤمن بالله أو ويشكُّ في قدرته ﷻ، فمثل هؤلاء يكون الخطاب معهم في تثبيتِ هذا الأصل، فإذا ثَبِتَ ثَبِتَ لازمه^(١).

أما قول المُعْتَرِضِ في الشُّبْهَةِ الثَّانِيَةِ: إِنَّ إِبْرَاهِيمَ أَخْبَارَ المعراج يلزم منه تجويزُ الجهلِ على الله تعالى -تعالى الله عما يقول الظَّالِمُونَ علوًّا كبيرًا- بما هو في مقدرة عبادِهِ، وما ليس هو في مقدورهم .. إلخ:

فالجواب عن ذلك أن يُقال:

ليس في الحديث ما يَسْتَلْزِمُ ذلك أبدًا؛ فليس في الخمسين صلاةً التي فرضها الله تعالى على عبده وخليفه مُحَمَّدٍ ﷺ ما يكون في أدائها استحالةٌ مِن جهة تعذُّرِ قُدْرَةِ العبادِ على أدائها.

(١) انظر «دفع دعوى المعارض العقلي» (ص/٣٨٥).

أَمَّا قول موسى ﷺ في الحديث: «إِنَّ أَمَّتَكَ لَا يَسْتَطِيعُونَ ذَلِكَ، فَارْجِعْ إِلَى رُبِّكَ، فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأَمَّتِكَ...»، فَلَا يُحَقِّقُ مَطْلُوبَهُمْ؛ ذَلِكَ أَنَّ نَفْيَ الْإِسْطَاعَةِ مِنْ مُوسَى ﷺ لَا يُرَادُفُ الْإِسْتِحَالَةَ بِحَالٍ فِي هَذَا الْمَقَامِ، وَإِنَّمَا مَقْصُودُهُ ■ مَشَقَّةُ ذَلِكَ عَلَى أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، بَرَهَانُ ذَلِكَ: أَنَّهُ أَطْلَقَ هَذَا اللَّفْظَ؛ حَتَّى بَعْدَ صَبْرُورَةِ الصَّلَاةِ مِنْ خَمْسِينَ إِلَى خَمْسٍ؛ فَقَالَ: «إِنَّ أَمَّتَكَ لَا تَسْتَطِيعُ خَمْسَ صَلَوَاتٍ كُلِّ يَوْمٍ»^(١)!

يَقُولُ الْمُعَلِّمِيُّ: «كَانَتِ الصَّلَاةُ قَبْلَ الْهَجْرَةِ رَكْعَتَيْنِ رَكْعَتَيْنِ؛ كَمَا ثَبَّتَ فِي الصَّحِيحِ»^(٢)، فَخَمْسُونَ صَلَاةً مَائَةً رَكْعَةً؛ وَلَيْسَ آدَاءُ مَائَةِ رَكْعَةٍ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ بِمُسْتَحِيلٍ، وَفِي النَّاسِ الْآنَ مَنْ يُصَلِّي نَحْوَ مَائَةِ رَكْعَةٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَزِيدُ، وَفِي تَرَاجُمِ كَثِيرٍ مِنْ كِبَارِ الْمُسْلِمِينَ: أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ كَانَ يُصَلِّي أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ بِكَثِيرٍ^(٣)؛ بَلْ إِنْ آدَاءُ مَائَةِ رَكْعَةٍ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ لَيْسَ بِعَظِيمِ الْمَشَقَّةِ فِي جَانِبِ اللَّهِ ﷻ مِنَ الْحَقِّ، وَمَا عِنْدَهُ مِنْ عَظِيمِ الْجَزَاءِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ...

فَأَمَّا اللَّهُ تَعَالَى؛ فَالْفَرَضُ فِي عِلْمِهِ خَمْسُ صَلَوَاتٍ فَقَطْ؛ وَلَكِنَّهُ سَبَّحَانَهُ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَرْفَعَ بَعْضَ عِبَادِهِ إِلَى مَرْتَبَةٍ، هَيَّأَ لَهُ مَا يَسْتَحِقُّ بِهِ الْمَرْتَبَةَ؛ وَمِنْ ذَلِكَ: أَنْ يَهَيِّئَ مَا يَفْهَمُ مِنْهُ الْعَبْدُ أَنَّهُ مُكَلَّفٌ بِعَمَلٍ مُعَيَّنٍ شَاقٍّ، فَيَقْبَلُ التَّكْلِيفَ، وَيَسْتَعِدُّ لِمَحَاوَلَةِ الْإِدَاءِ، فَحِينَئِذٍ يُعْطِيهِ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ ذَلِكَ الْعَمَلِ، وَيَكْتَبُ لَهُ جَزَاءَ قَبُولِهِ، وَمَحَاوَلَةِ الْوَفَاءِ بِهِ، أَوْ الْإِسْتِعْدَادِ لِذَلِكَ: ثَوَابٌ مِنْ عَمَلِهِ، وَمِنْ هَذَا الْقَبِيلِ قِصَّةُ إِبْرَاهِيمَ ■ فِي ذَبْحِ ابْنِهِ.

وَأَمَّا مُحَمَّدٌ ﷺ فَكَانَ يَعْلَمُ أَنَّ الْإِدَاءَ مُمْكِنٌ -كَمَا مَرَّ-، وَكَانَ فِي ذَلِكَ الْمَقَامِ الْكَرِيمِ مُسْتَفْرَقًا فِي الْخَضُوعِ وَالتَّسْلِيمِ، وَوَقَّعَهُ اللَّهُ ■ لِقَبُولِ مَا فَهَمَهُ فِي

(١) «دَفْعُ دَعْوَى الْمَعَاضِ الْعَقْلِيَّةِ» (ص/ ٣٨٥-٣٨٦).

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي (ك: الصَّلَاةُ، بَاب: كَيْفَ فُرِضَتِ الصَّلَوَاتُ فِي الْإِسْرَاءِ، رَقْم: ٣٥٠)، وَمُسْلِمٌ فِي

(ك: صَلَاةُ الْمَسَافِرِينَ وَقَصْرُهَا، بَاب: صَلَاةُ الْمَسَافِرِينَ وَقَصْرُهَا، رَقْم: ٦٨٥).

(٣) كَمَا تَرَاهُ -مَثَلًا- فِي «مَنَاقِبِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ» لِابْنِ الْجَوْزِيِّ (ص/ ٣٨٢) بِإِسْنَادِهِ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ قَالَ: «كَانَ أَبِي يُصَلِّي فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ثَلَاثَ مِائَةِ رَكْعَةٍ، فَلَمَّا مَرَضَ مِنْ تِلْكَ الْأَسْوَاطِ أَضْعَفَتْهُ، فَكَانَ يُصَلِّي كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ مِائَةً وَخَمْسِينَ رَكْعَةً، وَقَدْ كَانَ قُرْبَ مِنَ الثَّمَانِينَ».

فرض خمسين، والاستعداد لأدائها؛ ليكونَ هذا القبول والاستعداد مقتضياً لاستحقاق ما أراد الله ﷻ أن يعطيه وأتمه من ثواب خمسين صلاة . . .
فأما المراجعة للتخفيف بعد مشورة موسى ﷺ: فإنما كانت بعد أن استقرَّ القبول والعزم على الأداء، وعلى وجه الرجاء؛ إن خفف به فذاك، وإلا فالقبول والاستعداد بحاله .

ولم يُذكر في الحديث أن أحداً من الرُّسل اطلع على فرض الصلاة، وإنما فيه: أنه لما مرَّ محمدٌ بموسى ﷺ سأله موسى، فأخبره . . واختصَّ موسى بالعناية؛ لأنه أقرب الرُّسل حالاً إلى محمد ﷺ؛ لأنَّ كُلَّاً منهما رسولٌ مُنزَّلٌ عليه كتابٌ تشريعيٌّ سائنسٌ لأمةٍ أريد لها البقاء، لا أن تُضَلَّكُم بالعذاب»^(١).

وبهذا يتقرر انتفاء هذا اللّازم عمّن بُنيت أخبار المعراج؛ إذ لا ريب في شمول علم الله تعالى لأحوال عباده وما يصلحهم، «ولكنَّ الباري ﷻ أراد أن يُظهر فضيلةَ محمد ﷺ في خضوعه وتسليمه، وفضيلةَ موسى ﷺ، بأن جعله سبباً للتخفيف عن هذه الأُمَّة، مع إبراز عظيم رحمته بهذه الأُمَّة، ومع ما في هذه المراجعة من كريم المناجاة بين الله تعالى ونبيه ﷺ»^(٢).

وأما قول القائل في المعارضة الثالثة: أن في ثبوت هذا الخبر ما يستلزم التناقض؛ إذ كيف يرى النبي ﷺ الأنبياء في بيت المقدس ويصلي بهم، ثم يكون في الوقت ذاته في السماء؟ وكيف يكون موسى ﷺ في السماء السادسة، ويراه في الوقت نفسه في قبره يصلي؟

فيقال له: ليس هناك تناقض إلا في ذهنه؛ فإنَّ شرط التناقض وحدة الزمان؛ وهذا غير متحقق هنا، ذلك أنه ﷺ حينما أُسري به إلى بيت المقدس، أمَّ الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، ومن المعلوم أنَّ وقت صلاته بهم لم يكن وقت رؤيته لهم في السماء حينما عُرج به .

(١) «الأنوار الكاشفة» (ص/ ١٢٠-١٢١).

(٢) «دفع دعوى المعارض العقلي» (ص/ ٢٨٧).

وفي بيان انتفاء هذا التناقض، يقول عَقِيل القُضَاعِي المُرَاكِسِي (ت٦٠٨هـ)^(١) متعقِّباً الحُمَيْدِي (ت٤٨٨هـ) في استشكله ما حَصَلَ مِنْ رُؤْيَيْهِ ﷺ لِإِخْوَانِهِ الْأَنْبِيَاءِ فِي مَوَاطِنَ مُخْتَلِفَةٍ حِينَ قَالَ: «وَمِنْ الْمَحَالِّ أَنْ يَكُونُوا فِي مَكَانَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ»؛ فَقَالَ الْقُضَاعِي:

«قَوْلُ الْحُمَيْدِيِّ .. قَوْلٌ صَحِيحٌ فِي نَفْسِهِ، مَعْلُومٌ بِبَدِيهِةِ الْعَقْلِ .. إِنَّ كُونَهُمْ -أَيِ الْأَنْبِيَاءِ- تِلْكَ اللَّيْلَةَ فِي السَّمَاوَاتِ، إِنَّمَا كَانَ بِسَبَبِ عُرُوجِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى السَّمَاوَاتِ، فَيَكُونُ كُونُهُمْ هُنَاكَ، كَكُونِهِمْ بَيْتِ الْمَقْدَسِ، وَكَكُونِ مُوسَى فِي قَبْرِهٖ يُصَلِّي، ثُمَّ يَنْتَقِلُونَ مِنْ ذَلِكَ الْمَوْضِعِ إِلَى حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الْجَنَّةِ، أَوْ مِنْ غَيْرِهَا.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مَوْضِعَهُمْ فِي الْغَالِبِ، وَلَا نَقُولُ إِنَّهُ مَوْضِعُهُمْ عَلَى الدَّوَامِ بِسَبَبِ كُونِهِمْ بَيْتِ الْمَقْدَسِ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، وَكَمَا جَازَ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةَ يَجُوزُ فِي غَيْرِهَا؛ وَعَلَى الْجُمْلَةِ: فَالِدُخُولُ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْمَضَاقِي لَا يَنْبَغِي لِعَاقِلٍ، فَإِنَّهَا مُغَيِّبَةٌ عَنَّا، وَإِنَّمَا نَتَكَلَّمُ فِيهَا بِحَسَبِ مَا فَهَمْنَا مِنَ الشَّرِيعَةِ»^(٢).

فَإِنْ قِيلَ: فَكَيْفَ لِمُوسَى ﷺ أَنْ يَصَلِّيَ فِي قَبْرِهٖ وَهُوَ مَيِّتٌ، وَرُوحُهُ فِي السَّمَاءِ؟

فَيُقَالُ: إِنَّ لِعَالَمِ الْأَرْوَاحِ خُصُوصِيَّةً تَخْتَلِفُ عَنْ شَأْنِ الْبَدَنِ، وَقَدْ بَيَّنَّ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ جَوَابَ هَذَا السُّؤَالِ فِي قَوْلِهِ: «وَأَمَّا كُونُهُ ﷺ رَأَى مُوسَى ﷺ قَائِمًا يُصَلِّي فِي قَبْرِهٖ، وَرَأَاهُ فِي السَّمَاءِ أَيْضًا: فَلَا مَنَافَاةَ بَيْنَهُمَا؛ فَإِنَّ أَمْرَ الْأَرْوَاحِ مِنْ جَنْسِ أَمْرِ الْمَلَائِكَةِ، فِي اللَّحْظَةِ الْوَاحِدَةِ تَصَعَّدُ وَتَهْطُ كَالْمَلَكِ، لَيْسَتْ فِي ذَلِكَ كَالْبَدَنِ»^(٣).

(١) عَقِيلُ بْنُ عَطِيَّةِ الْقُضَاعِي الْكُرُوسِيُّ ثُمَّ الْمُرَاكِسِيُّ: حَافِظٌ مَتَنٌ، مُتَصَرِّفٌ فِي فَنُونِ مِنَ الْعِلْمِ، مَعَ حَسَنِ الْبَحْثِ وَالْمِشَارَكَةِ فِي الْأَدَبِ، وَلَيْزِي قَضَاءُ غِرْنَاةٍ وَسُجْلَمَاسَةٍ، مِنْ مَصَفَاتِهِ: «شَرَحَ مَقَامَاتَ الْحَرِيرِيِّ»، وَارْتَدَّ عَلَى ابْنِ عَبْدِ الْبَرِّ فِي بَعْضِ تَوَالِيفِهِ وَتَنْبِيهِ عَلَى أَغْلَاطِهِ، انْظُرِ «التَّكْمِلَةَ لِكِتَابِ الصَّلَاةِ» لِابْنِ الْأَثَّارِ (٣٣/٤)، وَانْظُرِ مُقَدِّمَةَ مُصْطَفَى بَاحُو لِتَحْقِيقِ كِتَابِهِ «تَحْرِيرُ الْمَقَالِ».

(٢) «تَحْرِيرُ الْمَقَالِ» لِعَقِيلِ بْنِ عَطِيَّةِ (١٠٧/١-١٠٨).

(٣) «مَجْمُوعُ الْفَتَاوَى» (٣٢٩/٤).

وبهذا تنجلي غيوم الشُّبهات عن نور هذه الآية النَّبَوِيَّة الرَّفِيعَةِ، والحمد لله
على توفيقه وهدايته.

